

شَعْبٌ فِي السَّلَاسِلِ ..

« قبل أن تعملوا مطارق التحرير ،
تبينوا مواضع الطرق .. وقبل أن تمضوا
إلى الغاية مثقلين ، طهروا أرجلكم من
الأغلال ، وخففوا كواهلكم من الأثقال »

خالد

عصر الشعوب ..

على ظهر هذا الكوكب ألفا مليون من البشر ، قرروا من غير لقاء ثم
بينهم أن يحققوا حرية الشعوب ، ويرفعوا ألوية الجماهير ..
وهو قرار أزلى قديم .. !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على إنفاذه أرسلوا رائدهم .. رهيلا
من البواسل الامجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق .. !
وبينما هو ماض الى غايته ، دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ،
والرماح ، والسيوف .. وطفقوا يصلونه من نقيمتهم سعيرا .. واذا
هو يفكر - في غمرة المباغثة - أي مضى قدما أم يعود - صاحت
به الاجيال المستقرة في ضمير الضيب :

تقدم .. فليس الى مرد من سبيل .. !

وانطلق من جديد يحمل الامانة الكبرى في شجاعة وايمان ،
ويشق طريقا محفوا بالمكاره والاطار .. وكلما مر على ملا
من صنائع الشر سخروا منه وتألّبوا عليه .. !

لقيته العيوش في موج كالجبال .. شارة حرابها ،
فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق .. وتدفق الباكون
يتخنون في الارض المجهولة لا يلقون لهواتف اليأس سمعا
ولا بالا .. !

لقيه المرجفون والمثبطون ، وحاولوا ايهاهه أن السفر طويل ،
والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ، والهدف جد بعيد .. فنفاهم عن
طريقه ومضى ..

تصدت له قصور الاباطرة ، والقيصر .. تسد الطريق وتزحم
الافق .. تطأ بقواعدها ارض الناس ، وتتعدي بأبراجها سماء
الله .. فدمدم عليها ، وتركها كشيء مهيل .. رحلة الضنى

والهول .. كلما تقطعت دون غايتها أنفاس جيل أسلمها الى
جيل .. وكلما أنجز تبعاته رجيل، نهض في أثره رجيل ..

وكانت رواية فذة .. اختلفت مناظرها وتغير أبطالها . لكن
موضوعها لم يتغير .. !

ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية .. !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط .. وأخرى ترفع قبل
العيون منى عذابا .. وأمالا رطابا .. !

مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة .. وأخرى تنساب
وديعة ساكنة كأشعة القمر .. !

في بداية الطريق ظلام ، ويأس ، ثم محارلة وتردد ، ثم اقتحام
وتحد .. وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم . وأعاصير وعواصف .
ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الافق البعيد شمس
الحياة والحرية والحضارة .. .

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرر ضرير .. !
وفي ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين
غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع .. ولا يؤرقهم خوف ..
والذين لا يزالون مقرنين فى الاصفاد .. !

وما أشد حاجتنا الى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه ، ونرى . !
لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات
يوم ينشد من شعره ما يثير ذكريات الجاهلية الاولى ...
ولكأنما شق الحديث على عمر فهب في وجهه بصيحته الزاجرة
.. فقال له الرسول :

دعه يا عمر يذكرنا بأيام الله ، قال لنا فيها عظة وعبرة .. !
فليتنا نستطيع أن نتذكر أيام الله في هذه البشرية الكادحة ،

لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة اللقيان والكبت ..
وكيف انتقلت من عهدا لوحيدانية الحاكمة - الى عصر الشعوب
وحكم الشعوب ..

فبعد أن كان أمير الاقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : «نبايع
صاحب الحق المطلق في حياتنا» .

أصبحنا نقرأ مكانها .. لكل انسان الحق في الحياة ، وفي
الحرية ، وفي العيش آمنا مطمئنا ..

وبعد أن كان حسن الجواريين أمير وأمير يقوم على تبادل
هذا النص المخزي : « أتعهد ألا اعتدى على أرضه ومواشييه
ورعاياه العبيد » .. !

صرنا نقرأ بديلها : « لا يجوز أن يعيش انسان في الرق
والاستعباد »

وبعد أن كان الناس - كما يقول أوليفيه :

« .. يسخرون لصيد الضفادع من الغدران كي لا تقلق الامير
الاقطاعي من نومه »

« ويجلدون بالسياط اذا نهروا كلاب سادتهم التي تخرب حقولهم
.. ويقذفون في السجون اذا عارضوا رغبة الملك وبطانتة في
الالوع بزوجاتهم أو بناتهم »

بعد أن كان ذلك كذلك .. اذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء .
فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولا يستباح
لهم عرض أو تنتهك لهم حرمت . والآن . لتذاكر أيام الله فينا ..
في أمتنا التي أتعبت التاريخ وأتعبتنا .. لنبصر مكانها في عالم
اليوم ، فاذا كانت لا تزال جاثية مصفدة - نقبنا عن الاوتاد التي
تشيدها اليها .. وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذي يحجب
عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن أفق طالما بزغت فيه

حضارات الهبت أشعتها الدافئة- الانسانية المقررة المرشدة بعد
أن عادت فيها الصقيع ..

نحن نحس أننا في بلادنا مستوطنون ، لا مواطنون . .
ورعايا ، لا أكفاء ..

رعايا كل حاكم مستبد ، وكل أقطاعى كبير ..
رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد
والاجتماع ..

رعايا استعمار مضى - ولا يزال ينالنا بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا
فى الضباب والظلمات .

ويوشك الذى حاق بالهند أن يحقق بنا .. فالبرهميون الذين
غزوها وفتحوها - أصبحوا هم الهنود .. أما الهنود الاصيلون ،
فقد جرفهم الموج وألقاهم على الشاطئ البعيد نثرات ! ..
وصار اسمهم المختار - المنبوذين .

فلنحاول قبل أن يبلغ الموج بنا مداه ..
ولننظر السلاسل التى صفدتنا بها الحوادث ، ونفضها .. حتى
نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان .

واذا نحن علمنا أن روح الامة يسيطر على مصايرها ومستقبلها،
وأن هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعه وتثقله وتخلله
.. فقد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب الماضى . . .

وتطهير الضمير من مخاوفه .

وتطهير العقل من أوهامه .

وتطهير الارادة من سلاسله الغلاظ ..

وقبل أن نحمل مطارق التحرير - يجب أن نتبين مواضع الطرق

.. وقبل أن ننطلق الى العناية مثقلين - علينا أن نظهر أرجلنا من الأغلال ..

ان الفساد الذي أرقنا به شاقه، واعناته - هو الاستثمار التركي . ثلاثمائة عام سويا ..

ثم امتداده الذي تلقف منه العهد ، وسار على الدرب ، ولا يزال يسير . وهو الاستثمار البريطاني

ثم النظم التي تقمصتها روح الاستثمار وشهواته ليعملا عن طريقها . وأهمها البراءة ، البرجوازي . ثم النفسية الواهنة المريضة التي أثمرها الاستثمار ، وقسمها على ذاتها - وتتمثل في الفرائز المكبلة الناقمة ..

وستنحس الآن بأيدينا هذه القيود ، قيادا ، قيادا . ولن نطيل المكث معها - فحسبنا أن نتبين طبيعتها ، ونقف على عوامل بقائها - ثم نعنى العناية المستطاعة بفطمها ، والخلاص منها .

طوفان رجيم .. !

ذات يوم ، وأنا أطلع في كتاب « أزمة الضمير الاوربي » التقت عيناى بأية رائعة نحيث الكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعاني الجليلة التي تشف عنها هذه العبارة الجامعة ، وبلغ من اشراقها ان اضاءت لى ما بين يدي وما خلفي .. ورسمت أمامي نهجا كاملا للحرية وال خلاص .. أما العبارة فهذه :

يقول فيلون - « ان الفزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد .. أشبه بتلك الانهار التي تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الارض الخصبة التي كان عليها فقط أن تروىها .. »

تري كم من الفزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجللهم هذا الوصف ، ويحتويهم داخل اطاره الاسود الرهيب .. ؟

سنراهم الآن رأي العين .. اولئك الذين حسبهم آباؤنا

الطيبون أنهارا تجري بالخشيب والنماء ، فشسقوا لها الأرض ،
ومهدوا أمامها الطريق - وفي أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون
الحب والثمار ، فاذا الأرض خراب يباب . . ليس فيها ما يهتز سوى
نفحات القر ، وسبرات الشتاء !

لقد استحال نبها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ،
وطوفانا رجيمما - تبر الربوع تبيرا . . !

نعم - هذا هو الذي حدث - فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا
زعموا أنهم هداة لا غزاة . . ومصلحون لا فاتحون . . وأنهار
هاية سعيها أن تروى الأرض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج
بهيج . . أنهار ستروى الشعب بالمصارف جميعا . . المصارف
السياسية لينهض ويسود ، والادارية لينظم نفسه ويسوس
أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة . ويمضي مع الركب العليم
الرشيد . .

ثم الفينا هم جميعا في سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر
ما كانوا في سباق هائل نحو الوعود المبدولة ، والمزاعم الجريئة . .

الفينا هم طوفانا وسيلا ساق أمام امواجه العالية الصاخبة ما
كان الشعب قد ناطه به من منى وأمل . . وجرف في عنفوان
وجنون بقايا جلده وتمامه . . والتهم فضل ما خلفته الايام بيديه
الضامرتين من قوت . . ثم مضى يتجشأ في استهتار - ويواصل
تساوقه وانحداره في عريضة منقطعة النظر . . ! ليست هذه
الكلمات شعرا ، ولا مبالغة . . ولنستمع الآن للتاريخ القريب لا
البعيد ، فإن لنا فيه عظة وعبرة .

ولكننا في هذا النطاق لن نبسط حوادث . . ولن نتقصى وقائع ،
فليس هذا الكتاب سجل تاريخ - وغاية ما سنصنع أن نرفع
تجاه الابصار أعتى نماذج الاستعمار الذي عاث في أرضنا ،
وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركي . . . والاستعمار الانجليزي

وانما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، وأشدّ عسرا
وكيدا - ولأنهما لا يزالان يلفنانى مثل الضباب من احتلال
بريطاني جائم .. ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركى ،
واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ - الاستعمار التركى ..

تركى = طاغية .. !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركى تستبد بنا طبيعتنا
الازهرية التى تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه .
وتأبى الا أن تحلل لفظ «تركى» فما هو .. ؟

ولنذكر أولا - أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين
الانسان واسمه ولقبه ..

ويضرب علماء النفس لنا مثالا رجلا اسمه « صعب » ، فإن
دوام انصباب هذه التسمية فى سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن
بطابعها ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لا ريب هو
سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماءهم من
هذا القبيل .

فقد أبدل باسم « حرب » - وكان يحمل به بعض أصحابه
« سلما » ... وأبدل باسم « أجهم » اسما آخر هو « سمع » .
هناك اذن وحى مستمر توحىه أسماءنا الينا ، ويلون الى حد
كبير طباعنا ..

ايكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغيان ؟

ولكن - هل كلمة تركى ترادف طاغية ، حتى نشهد بينهما هذا
التلازم والانسجام .. ؟

نعم - فالترجمة الحرفية لكلمة تركى هى - طاغية !

يقول العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف :-

« وقد خرجت من جبال التاي قبائل ، وتفرقت في انحاء آسيا العليا التي هي الآن تركستان فسموها الصينيون باسم توركو، كما سمي الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانية - اسما جنسيا للقبائل المتوحشة .. »

وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية ..
أو عات .. »

« ويذهب كثير من المؤرخين الى أن الأتراك كانوا يلقبون قديما بالمدمرين .. »

ونحن على ذلك من الشاهدين .

فلقد دمرونا باحتلالهم، وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .. وسنرى الآن من حكمهم طرازا مقام يوم واحد في هجيرهم عذاب يتواضع ازاءه عذاب الجحيم ! وانها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفرع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركي .. فتعالوا لننظر ما خلفه في ضمائرنا من قروح ، وفي أرجلنا من أغلال .. !

فمنذ عام « ١٥١٧ » - يوم غزا السلطان سليم بن بيازيد مصر، الى ما شاء الله من أعوام، والشعب المصري في باستيل تركي يروض فيه على الذل والغش والجاسوسية وفي محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد .

ولقد أفاد الانجليز حين استعمرونا بعقريّة الأتراك القدماء في البغى والفساد .. وطبقوا منا هجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل .. !

ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة؟ والواقع انه من مخلفات الاستعمار التركي . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق . فلما جاء الانجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه !

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل بأسوأ معاني الكلمة - في وضع هذا المبدأ الفاجر واستعماله . .

فقبل أن يغادر مصر إلى تركيا مزق السلطة فيها إلى ثلاث مرق - وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الأخرى كي يدوم الشقاق بينها جميعا .

وهو صاحب هذه الحكمة الخبيثة :

« إذا اختلف الدباب وتناحر . ضمنت لنفسك نوما طويلا » !!

١ - النهب والاقطاع . .

ولقد شرع السلطان سليم لابنائه وحفدته فضيلة انتهاب الأمم وسرقة الشعوب . . فان « جورجى زيدان » يحدثنا في كتابه « تاريخ مصر الحديث » ان هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والاسكندرية ، وحين أزمع الرجعة إلى بلاده نقل معه ألف جمل محملة ذهباً وفضة وأسلا بالآخرى ! أرايتم . . ؟!

لقد هام كالكلب المسعور في بلاد لا تربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان ، ومضى ينهش كل لقمة في كف - وكل درهم في جيب . .

وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان . . فأعلن في فرمان رسمي « أنه المالك الحر لجميع أرض مصر . . » !!

ووزعها اقطاعات على مزارعين دعاهم « الملتزمين » . . نظير خراج باهظ ! . .

ووجد من الأربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر في عهده كل عون لمظالمه وتشببت لسياسته . .

واذن فنظام الاقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم . . ثم لم ترحل معه يوم رحل - بل ظلت على شكل باذخ مشير . .

ب - الرشوة .. !

والاستعمار التركي هو الذي دنس ضمير هذا الشعب بالرشا .. فلقد وجد نفسه على دين مصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة .. وكسل هؤلاء يشهدون أن لا اله الا الله ، وأن الرشوة والانتهاك من طيبات ما أحل الله .. !

تصوروا أن الباب العالي نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويشيب عليها . !
يقول « بركهاردت » : (١)

« يطلب الباب العالي الموارد .. ولا شيء سواها . ولكي يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الاعباء الثقيل .. أما الباشا الذي يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ويجعل الغلبة في مجالسه للعدالة فانه يجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه - لا لأنه عادل ، وإنما لان عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب الى الديوان . واذا أراد الباشا أن يبقى على نفسه ، فليس أمامه من سبيل الا أن يسلم في صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد .

وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة « ! !
اذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد ..
كانت الرشوة طريق الوصول الى قلب السلطان ، وكان الباشا الذي يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ، ويجعل الغلبة في مجالسه للعدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

(١) الدولة والنظم الاقتصادية في الشرق الاوسط - تعريب دكتور راشد البراوي

ويعنى « بر كهاردت » بالمليك هــنا - السلطان التركى ..
ونحن نعى ذلك ايضا ..

كان الساب العالى يطلـب الرشوة من ولاته ، وولاته
يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة .. لذلك كانت عملة
متداولة مشروعة !

ويحدثنا كتاب « الكافى » فى جزئه الثالث :

« ان على باشا الصوفى أحد ولاة السلطان سليمان كان
يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم .. مما أغرى الدهماء
والخطـيرين بأمن الناس .. » !!

وكان خلفاؤنا الابرار يبيعون المناصب جهرة ..

فيحدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة
القومية » ناقلا عن المستشرق مارسل .

« .. ان تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى
آخره انحصر فى تعاقب الباشوات الاتراك على ولايتها ..
فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الاستانة
.. ويظل الباشا فى منصبه لا عمل له الا جمع المال
واستصفائه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يفـادر
منصبه .. » !!

وبهذا نرى أن الحكام الاتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير
حمايتهم ورعايتهم .. والذين يرشون ويرتشون فى وضع
القانون .. كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة ،
والرشوة الحرام ! ..

ج - الفدر والارهاب ..

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركى المديد من

غدر مسلح ، ومؤامرات موصولة وأرهاب رجيم . . !

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض . . بل والخلفاء أيضا يتآمر الابن على أبيه ، والاخ على أخيه . . وتفننوا فى الاغتيال وحبك المؤامرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هى الشئ الوحيد الذى يتناولونه بيد الاستاذية البارعة المتفوقة .

ولو انك معى الآن تقلب الصفحات التى اقلبها من تاريخ استعمارهم الاسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى ان القلم ليجفل فى مسيره . . واكاد أشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين ! . وأسأل نفسى : مم تخافين ، وقد ذهبوا . . ؟
ربما تفزعها تلك الاشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها روعس الشياطين . .

وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا ربعا . . !

حين تقرأ مثلا ان « محمود باشا لتركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون ألف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهرا بالغبطة والشكر . . ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته . . ثم يأمر بخلق القاضى المصرى « يوسف العبادى » . . ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه . . ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحيى نساءنا . . عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم أن بجوارحه مئات الانباء والمذابح . . وامش

الهيونا ، فالطريق التي امامك مزرقة بجثث آباءنا الذين صرعوا
جـهـرة ، أو اغتيلوا في الظلام البهيم . . !

.. دنشواي .. التركية .. !

واذا كنا نحفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة
«دنشواي» التي أعدم فيها الانجليز خمسة من مواطنينا
في ظروف معروفة . . فان هناك في تاريخ الاتراك فضيحة
مشابهة . . تجعلنا نعتقد ان الانجليز كانوا مقلدين في
جريمتهم للفرقة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

واذا كانت (دنشواي) .. التركية . . لم تأخذ في التاريخ
مثل المكان الذي أخذته (دنشواي) الانجليزية ، فلأنها
لم تكن (دنشواي) واحدة . . بل كانت تتكرر دائما كوسيلة
لاذلال الشعب ، واسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات
العادية في شرع الاتراك . . !

حدث ان استولى « محمود باشا التركي » على جميع تركية
«ابراهيم الدفتردار» امير الحج وكانت مائة الف دينار ، وجبى
من الناس بواسطة السوط والارهاب مثلها . . ثم رفعها الى
الاستانة ليرضى عنه مولاه . . وعلم القاهريون ذلك وكانوا
قد التمسوا من السلطان عزله علموا ان الرجل قد اشترى
سلطانه وسيده بهذه الهدايا المنهوبة . . فكمنوا له في الطريق
وقتلوه . . وفر القاتلون .

وأرسل سوء الطالع في هذه الطريق جماعة من الفلاحين
لم يشتركوا في القصاص من محمود باشا . . بيد أن الحاشية
التركية للحاكم الصريح التمسست لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس
الاسباب التي التمسها الانجليز فيما بعد لاعداد ضحايا دنشواي
وبث الرعب في البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ، التي تخفف عنا لأواء هذه
القساوة أن نستمع لبعض الأشعار التي تغنى بها الناس
عند ماخر ذلك الوحش التركي السائب .

أتى محمود باشا يوم نحس	فساقت منيته غصيبة
تجاه الناصرية خلف حيط	بفيط جاءه منه مصيبة
بينسدة رماه كف رام	فددها فجاءته مصيبة . !

هـ - الذلة .. والعلة .. !

ورسم الاستعمار التركي سياسة لاذلال الشعب ،
وافنائته .. وان ما نعاينه اليوم من جبن عقلنا الباطن ، وتوجس
هزمننا وارادتنا لأثر محتوم لما أنزلوه بنا من رعب وبطش ..
لقد أنشبو قسوتهم في الشعب وشردوا طمأننته . وضافت
عليه المحاولات بما رحبت .. وبقيت لذلك مثالا - تلك القصة
التي تروى عن أحد الولاة الاتراك حكم هذا الوالى على مصرى
بالاعدام .. وعند التنفيذ شدوا وثاقه ، و ربطوه الى سارية ..
ثم سألوا : ألك حاجة قبل أن تموت ؟ ..

قال : نعم .. أن أنقل الى سارية أخرى ..

ففصموا وثاقه .. واذ هوفى طريقه الى العمود الثانى ،
توفى الوالى الذى حكم بأعدامه . وولى الامر بعده وال جديد ..
ألغى حكم الاعدام ، وأفرج عن المصرى المسكين ! ..

ان هذه القصة لم تقع ، وانما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بهامبلغ
القهر الذى أخذ بخناقهم . وهوان الامل الذى ناطوا به خلاصهم .
فالجماهير المضطهدة المغلوبة على أمرها بعد أن عجزت عن مواجهة
جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تمنى .. وتخيّل ، وحتى
خيالها كان مكبلا يدور فى مدار ضيق مساحته تلك الاشبار التي
تفصل بين ساريتين ! ..

ومن هنا اذن جاء هذا المثل الذي ترتله الملايين اليوم : «من خطوة بخطوة . . . يأتي الله بالفرج» .

انه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بغى الاستعمار التركي الذي حرم الناس حتى من رحابة الامل . . !
وكان للاسقام والافناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للاذلال . .

ولكن ما صالح الاستعمار في اذلال الناس بالعدة ، وافنائهم بالجملة وهو في حاجة اليهم لخدموه . . ؟

والجواب على ذلك - ان سليمان بن سليم كان قد أصدر فرمان الذي جعل نفسه به المالك الاوحد لجميع ارض مصر - وهو لن يزرعها بيده طبعاً فأعطاه . . للملتزمين . . نظير ضرائب فادحة لا تبقى للملتزم سوى مسكه الرmq ولكن هذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من اطماع سليمان . غير الحكيم . فاشتد ان تؤول اليه جميع تركات المتوفين الذين لا عقب لهم ولا وارث ، وبقي هذا المرسوم نافذا بعد خلافته ومماته .

ثم تطاول العهد - فكان الباشوات الاتراك يجبون هذه التركات لأنفسهم ، وليرشوا بها السلطان أيضا - فاشتد حرصهم على ان يموت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط . . !

وطبعاً لا سبيل لتمييزهم فأتاحوا للأوبئة ان تتخذ من بلادنا مزاراً ووطناً لتحقيق لهم الغرض الدنيء . . ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال .

ومن هذا الاحصاء المتواضع ندرك مبلغ ما كان بين الأوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف . . !

ففى عام ١٠٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة الف نفس

وفي عام ١٠٣٥ اجتاح مصرياء صرع ثلثمائة ألف نفس
وفي عام ١٠٥٠ اجتاح مصرطاعون خرب مائتين و ثلاثين قرية
وفي عام ١٧١١ اجتاح مصرطاعون اسماعيل - وصرع ستين
الفا . . (١)

هذه الوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الاقدمين - حملة
ميكروبات - للوهن والسقم توارثناها . . ولا تزال أرحام
الامهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوارثات .!
ونلاحظ ان الاستعمار الانجليزى قد ورث فيماورث
عن سابقه هذه المؤامرة السفهية المتوحشة . . فسلط علينا وباء
الكوليرا فى أعقاب الحرب حتى لا نجد قوة نشور بها فى وجهه
. . ورفض رجاء الحكومة المصرية فى منع القيادة البريطانية
عن بيع فضلات الطعام الملوث بالوبئة المتبل بالامراض . . وحتى
الوقت الذى نكتب فيه هذه الكلمات لا تزال بريطانيا ترفض
حق مصر القانونى فى انشاء محطة رقابة صحية بمنطقة «فايد» كى
تتمكن من اشراف صحى كامل على وسائل المواصلات فى تلك
الاراضى المصرية .!

ولم تكن وسيلة الاذلال لدى الاستعمار التركى - السوط
وحده - بل والسلوك ايضا . . فالوالى التركى ذو سلوك
خاص مع الشعب . . سلوك يمتاز بالصلف والغطرسية
والتعالى - وهو نوع السلوك الذى كان السلطان يعامل به الولاة
والرعايا . .

فالسلاطين حين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون :
« . . أما بعد ، فقد تمت ارادتنا السنية الشاهانية

(١) تاريخ الحركة القومية - ج اول - عبد الرحمن بك الرافعى

(كذا) فإذا أردت اكتساب رحمتنا الملوكانية ، فتعال الى
اعتابنا ، واقسم على طاعتنا ، والاخلاص لنا . . »

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسمي الى
اعتابه والقسم بين يديه على الطاعة والاخلاص . . !
وهيهم اذا خاطبوا الشعب لا يوجهون الحديث اليه لهوان
شأنه . .

بل يخاطبونه بواسطة الباشوات قائلين :

« بلغوا عبيد بابنا العالي » . . !

ثم لكي تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعايا ضربة لازب
يعلنون في قبة انهم « اعتلوا عرش اجدادهم الامجاد طبقا للاوامر
الواردة من ملك الملوك » . . ! ولم يكن هناك ما يربطهم بملك الملوك
جل شأنه سوى هذا الانتحال .

لقد راض الاستعمار التركي رعاياه على الذل . وراض ولاته
على التزلف ، ويمثل الاخير اصدق تمثيل خطاب الخديو
توفيق المرفوع منه الى الصدر الاعظم بمناسبة تعيينه مكان
والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة « ٢١٦ » من الجزء الرابع لكتاب الكافي في
تاريخ مصر . وأبصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

« وصل ليد التبجيل تلعرافكم السامي الأمر ان فراغ محسوبكم
والذي المحترم عن الحكومة المصرية . وتوجيه مقام الخديوية
من **متحف جليل عواطف** الحضرة الملوكانية لعهدة **وقيقكم**
هما من مقتضى على ارادته السنية السلطانية . وبالحقيقة
أن تكرم حضرة صاحب الخلافة **الاقديس الذات** بتوجيه مقام
الخديوية لعهدة هذا **العهد** كان دليلا على وجود **عبدكم** مشمولاً
بفيض النظر الملوكاني . .

« فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير اكف الادعية الخيرية ببقاء عمر ، وعافية ، وارتقاء شمسك ، وشوكة الحفزة السلطانية . عالم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسيادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبوتات على قدم المبودية والتابعة للسلطنة السنية . » !

من هذا الذى يتكلم .. ويكرر كلمة عبدكم ورقيقكم مرات عديدة ؟ ..

أهو فرد عادى من الشعب ؟

انه الخديو يبذل تواضعه بسخاء .. لان السلطان التركى لا يفتح بدون هذا التواضع من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على ضوء هذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته - اذا كان هذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين « أنتم عبيد أحساناتنا » واختياره كلمة (عبيد) بالذات ..

انها عملية تعويض لاغير .. وهو فيها معذور .. لقد تواضع كثيرا للذين فوقه فلا بد أن يتقاضاه من الذين تحته .. من الجماهير والرعايا ! ..

و - الخداع بالدين ! ..

ولم يترك الأتراك وسيلة يستغلون بها الرعايا الا انتصوها واذا كان شعبنا متدينا عميق التدين ، فقد استغلوا فيه هذه الفضيلة اسوا استغلال ..

فالسلطان سليمان الذى جرد الامة من جميع أرضها وأملاكها . جاد عليها بكثير من المساجد والكنائس التى بناها .. وفى الوقت الذى وقع فيه فرمانا يجعله « المالك الحر لجميع أرض مصر » ..

وقع فرمانا آخر هذا نصه : « لاتخرج امرأة قط الى الاسواق والشوارع ولومتقبية الاالعجائز . . ومن خالفت تضرب ، وتربط من شعرها في ذيل حمار ويطاف بها في القاهرة » !!

وفرمانا ثالثا : « نطلب من الناس جميعا ان يسيروا بمقتضى الشريعة - ويعملوا بموجب السنة » !
يا سبحان الله !!

نهب واقطاع . . ثم دعوة الى القرآن والسنة . . !
عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد . . !
هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك احد . ان خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد

فحين ولى «نيرون» الامبراطورية الرومانية ، قدمت اليه اوراق محكوم عليه بالاعدام لتوقيعها ، فبكى . . بكى نيرون وصرخ : ليتنى ما تعلمت الكتابة . . !

ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية . . رواية حياته الآثمة ، سفك دم أمه يمينه . . وأحرق روما وهو يقهقه أمام مشهد صاحب من مشاهد الجحيم . !

ان الحكام الأتراك كذلك . . يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره . . ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة التدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله ، ويسومونه سوء العذاب . .

والشعوب حين تبلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبد السلام يقرع الجرس ويبيع أمراء الممالك بالمزاد . . فان عاقبة أمرها تكون خسرا . . وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر والعرب .

الم تر مرة أو مرات . . رجلا يشكو ويثن ، فيقول له صديقه متهمكما أو مسليا : ادع للسلطان بالنصر . . ! ان لهذه الكلمة

الدائعة قصة في تاريخنا القديم الحديث .

فقد دخل امام أحد المساجد ليخطب الجمعة في عهد بعض السلاطين الأتراك . فوجد المصلين جميعا رقادا يثنون . . فسألهم عن سر هذه المظاهرة الصامتة فأجابوه : ان الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبس ووقوت زاعما أنه سيرسلها الى جيش السلطان .

فسألهم الشيخ : اليست جيوش السلطان تحارب الكفار ؟
اجابوا في سداجة : نعم !
قال الشيخ : اذن - ادعوا للسلطان بالنصر . !!
وذهبت مثلا . .

ولقد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر ، فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذانصها :
(نصيحة من علماء الاسلام بمصر)

« . . نخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الا فرنجية . يحبون المسلمين وملتهم . . وهم أصحاب لمولانا السلطان . قائمون بنصرته ، وأصدقاء ملازمون لمودته . . يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه . . ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله . . » !

ان استغلال الاستعمار التركي للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا . . بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل . . بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها .

وآية ذلك ما لا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين - فليس هذا من الاسلام في شيء . . ولكنها الخرافة الدينية التي روجها الأتراك . . وأصدروا بها فرمانا ومرسوما وعلينا ان نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذي مر

بينا آنفا .. والذي حرم به على المرأة ان تخرج لحاجتها ولو
منتقبة .. ومن فعلت تربط بشعرها في ذيل حمار !

أهذا هو الاسلام الذي خاطب رسولہ النساء قائلا : « ان الله
أذن لكن ان تخرجن لحاجتكن » وأباح لهن الخروج حتى بفسير
نقاب وحجاب ؟

لكن أمة تعيش ثلاثمائة عام في ظل الجهالة التركية، والتنطع
التركي والسيطرة التركية لابدان تثمر مانصانيه اليسوم من
رجعية وانحطاط وتعفن !

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك: « سأصنع بكم كما يصنع قيصر
الروس برعاياه » مخاطبا شعبه وشعوب مستعمراته .! فماذا
كان يصنع القيصر ؟

هنا سيتبين صدق قولنا - ان استغلال الدين كان خطة
مرسومة ، ولم يكن مصادفة طارئة
فقد كان القيصر - أي قيصر - بارعا في استغلال دين بلاده .
وكان رجال الدين في الكنائس يصلون بالناس « صلاة القيصر »
أيها القيصر ..

نحن عبيدك المخلصون !..

يا ظل المسيح !..

ويا روح الحق !..

نعيش لخدمتك !..

ونطيعك فيما تقول !..

وهكذا أراد الأتراك أن نعبدهم من دون الله .. وأفهمونا ،
وهم يتولون الملك كابرًا عن كابر ، أو صاغرا عن صافر .. انهم
كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقا للأوامر الواردة من ملك
الملوك » !

ز - الاستعمار التركي - والجهل

وهذه الأمية التي لاتزال لطلخة سوداء في وجه مصر أثر من
امجد آثار الاستعمار التركي ، واحقها بالاشادة والتنويه . .
فقد عاشت مصراعوامها الثلاثة محرومة من الثقافة والمعرفة . .
ودبر الأتراك مؤامرة للاجهاز على لغة البلاد . . وأسماوا اللغة
العربية «لغة الفلاحين» وكانت اللغة التركية لسان السادة
والقصور . .

ولا تزال مظاهر هذه الاستهانة بلغة البلاد ماثلة
أمامنا - فعلى بعد خطوات منا، وفي داخل القصور السعيدة
المترفة - يعيش اقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئا سوى
انها الهمهمة التي تتحرك بها شفاه الرعايا . . وتضطرب بها
مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضا . . !

واقعد كانت مصر قبل استعمار الترك واحة يأتلق فيها علماء
نوابغ كابن اياس وابن خلكان والمقرئزي وابن حجر وابن العميد
والذهبي والدميري وابن نباته وصاحب «صبح الاعشى» وسواهم
كذلك كانت مهاجر الاحرار المفكرين حين يمسهم في بلادهم
نصب واضطهاد . فقد هاجر اليها ابن خلدون وابن تيمية
وابن القيم وآخرون .

فلما جن ليل الأتراك، وكان ليلا بهيما ، ران الجهل على البلاد
وعاش قرير العين في حمى حلفائه وأصدقائه الأتراك . .

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشيعا للجهل ؟

هنا تلتقى بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا . . حيث
تضيء لنا الطريق، نظريته التي يرد بها جميع الظواهر والاشياء
الى اسباب مادية واقتصادية .

فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك
نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض . . وما أسرع

ما تتحقق لهم الأمنيات .. فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا
جميع المكتبات الكبرى التي كان الفاطميون قد خلفوها ، وجاوز
جشعهم واستكلابهم كل حد .. فاقتلعوا أبواب المدارس ، وأخشاب
النوافذ والسقوف ثم باعوها !

يقول على باشا مبارك في «الخطط التوفيقية» «.. أهمل
أمر المدارس .. وامتدت يد الأطماع الى أوقافها، واحتجرت
مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعا وانقطع التدريس
فيها، وبيعت كتبها، وانتهت. فخربت وصارت زرائب ..» !
لماذا نبش القبور ؟

هل تظن ، وأنت تقرأ هذه السطور .. وتستعرض بعض
مشاهد الماضي ، أنك أمام عرض تاريخي .. أو حديث نرجي به
الفراغ ، ونملاً به الصفحات ؟ لا - أنت أمام غرض أجل ،
وغاية اسمى ..

ونحن نبش قبر الاستعمار التركي حقا لنكتشف الاوتاد
المطمورة تحت ترابه والتي لا تزال تصلنا بها سلاسل واغلال ..
أن نشوء الجريمة يلقي ضوءا ناصعا على أطوار نمائها، وعوامل
تشبثها بالبقاء ..

ونحن شعب تهيئ فيه جرائم الاستبداد السياسي، والاستغلال
الاقتصادي ، والأقطاع المتفشي، والرجعية المنحدرة ..

وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز
والاضطراب ..

ويجثم فوق ظهورنا ماضٍ موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة
ويعتاقنا عن التقدم ..

فليس لنا بد من تطهير آبارنا

ان علماء الاجتماع يقررون أن «روح الأمة يسيطر على مصايرها
ومستقبلها»

والأمة .. ما هي ؟

أنها ليست جيلا يقيم على أرضها ثم يزاور ويختفى - بل هي تيار بشري متساق الموجات، يجري لا مستقر له .. وكل موجة فيه دافعة مدفوعة .. مؤثرة متأثرة - معطية آخذة .. وهي في نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب في حاضرها - وتتدفق نحو مستقبلها .

وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضي فسنظل دائما نعيش في ذلك الماضي برجعيته وفساده واستبداده .. وسيظل الشعب جاثيا تحت الاثقال التي أنقضت ظهره ، وهدمت قواه لابد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الاخفاق والفشل .. تسويه وتنفع فيه ضرورات حاضرا ، وتبعات مستقبلنا .. واذا لم نصنع ، فسنظل امتدادا لظلمات الحكم التركي . ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها أخطاء وأعباء ماضيها .. وقطيعا أبله ، يضطرب في المرعى القاحل ويدور .. يرى هشة العصا فيتراكض .. ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهاresh .. والراعي هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة .. وهو يقلب بيديه البضتين شرائح الشواء على المدفأة .. حتى اذا غص بطنه الكريم ..لقى على القطيع نظرة فاحصة .. واستل سكينه المخضب ، وخاض بين قطيعه المطيع .. يتخير منه ذبيحا آخر .. لوجبة أخرى ..

فلنفادر الماضي ..

وان هذا العرض «السيكولوجي» للحقبة التي قضيناها في قبضة الاستعمار التركي لتكشف عن المأساة .. المأساة التي تتمثل في اننا - الدولة والشعب - لا نزال نعيش في ذلك الماضي السحيق .. وان كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن .. بل كل ما يربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور والاعوام ..

فنحن نؤرخ وجودنا الآن بعام « ١٩٥١ » بيد اننا نعيش في عام « ١٥١٧ » حيث بدأ الاحتلال التركي ، وفيما تلاح من أعوام وقرون ..

فالمجز السياسي .. والرجعية الاقتصادية .. والانهياد الخلقى والشعب المستسلم .. والحكم الأتقراطى .. والفساد الادارى .. والحريات المصادرة .. واستغلال الدين .. كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها فى تلك القرون ..

ودلالة هذه الحقيقة المؤسسة اننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى .. صحيح أن اشخاصه اختفت وطواها التراب .. ولكن اخلاقه وشعائره لايزالان يثمران كل ما اثمره بالأمس من فساد فاؤل اغلالنا التى تصفدنا - هذا الماضى .. فلنفادره، ولنصنع لنا حاضرا جديدا حرا باسلا

وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التى نقترح اقامتها لنصبر عليها .. مفادين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطرا حياة تستحق أن تسمى حياة والآن - فالى ثانى اغلالنا.

٣ - الاستعمار البريطانى

ان الفساد التركى الذى أجزناه فى السطور السالفة .. كان القنطرة التى عبر عليها الينا الاستعمار الانجليزى . وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الاوحد فى بقاء الاستعمار الانجليزى ..

فالانسان مرتبطان نشوءا ، وتطورا ، وبقاء . وهذه حقيقة يجب ان تملأنا البصائر والاذهان عند ما بدأت الامبراطورية الباغية - التركية - تترنح تحت روعة الترف الذى بددها - والفتن التى مزقتها .. كانت

طبائع الاشياء تهيب بسيد جديد كى يتقدم ليستولى علينا . .
وكان هذا السيد هناك . . وراء الحوادث ، واقفا يترقب . .

لم يكن نابليون . . فقد ذهبت محاولته فى نفس الطريق الذى
ذهبت فيه محاولة لويس التاسع فى القرن الثالث عشر . . وكان
هذا الناهب الجديد . بريطانيا

لماذا دخلت بلادنا . . ؟

لقد أعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته أن القوات
البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالى . . اذن فلا تراك
هم الذين ادخلوهم ديارنا بعد أن قبلوا حماية الانجليز لهم من
الفرنسيين أولا . . ثم من الشعب ثانيا . . وأعلن الانجليز أنهم
مستولون عن حماية الباب العالى ومنافعه ونفوذه .

وقبل ان يفادروا مصر هذه المرة احتفروا وقبعة غائرة بين
الاتراك الذين يدعون الحصر عليهم وبين المماليك . . ثم أوعزوا
الى «محمد الألفى» أن يذهب الى لندن ليطلب معونة الانجليز
وحمايتهم ! . .

وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى
مصر منطقة نفوذ لها . .

فقد تكررت فى المؤامرة التى أوقعوا فى حبالها توفيق وعرابى
وذهبوا يمثلون نفس الدور مع احمد عرابى موعزين اليه
ان يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقا

فيحدثنا شاهد عيان هو «شارويعم بك» فى الجزء الرابع
من كتاب «الكافى»

« . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من احمد
عرابى أمام قصر عابدين فى يومه المشهور وقال له : ان كنت
تخشى شيئا فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ ارواحكم وعيالكم
وأموالكم ، وجميع ما لكم من الرتب والقباب الشرف . . » !

أرأينا ...؟ إنها نفس اللعبة القذرة التي دخلوا بها... وعليها
الآن يتكئون ويرتكزون ...

ولقد أجاب عرابي جوابا جديرا بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا
وعيانا وأنت نفسك غريب تعيش في حفظنا وحمايتنا ؟! » وأراد
عرابي أن يبالغ في إحراجهم واذلاله ... فقال :

« وكيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ،
اسماعيل صديق باشا ... ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التي
شربها قهرا ١٩٠٠ »

ان عرابي يومذاك كان يمثل كل الوراثة النبيلة والاصيلة
التي نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل

وماذا عليه لو دخل في حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع
الآخرون ... ؟ - ان وطنيته الاصيله ترفض هذا الهوان .

الكلمة الثانية ١٠٠!

وسمر الانجليز الفتنه وأججوها ... وتقدم ممثلهم في
مصر من عرابي وسأله :

- ماذا تفعل اذا لم تجب مطالبك ... ؟

أجاب - أقول كلمة ثانية -

- وماهي هذه الكلمة ؟

أجاب - أقولها عند القنوط .

وعمل الانجليز على أن يقنط أحمد عرابي فحرضوا عليه الحديو
وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والاشلاء

ثم كان منشور الحديو والخليفة التركي يتلى ويذاع مبشرا
بعضيان عرابي ومن معه ... :

ثم توالى المشاهد تترى في تناقض عنيف ...

فالحديثو توفيق يعود الى عابدين من الاسكندرية .. وان موكب
ليتهادى بين صفيين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية .. وفي
نفس الوقت يدفع أحمد عرابي بأعقاب البنادق الى غرفة مظلمة
فى قشلاق قصر النيل !..

والحديثو توفيق يشرف الوليمة الكبرى التى دعا اليها القوات
البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلم
البريطانى الذى يخفق خفقات التحدى والازدراء .. حتى اذا
فرغوا من الطعام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ليقلد
نيشان « النجمة المصرية » كل جندي انجليزى شهد موقعتى كفر
الدوار والتل الكبير !..

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابي هناك .. يستمع الى
عريضة الاتهام :

« يا أحمد عرابي - لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك
متهم بالعصيان والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك
على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من
القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من
قانون الجزاءات الهمايونى !

ومشهد آخر ...

فعلى جدران البيوت والشوارع الصق هذا المنشور الكريم -

((ارادة سننية لكافة أهالى وسكان مصر))

« لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى ماليا
وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس ، فقد أخذت على عهدتها
التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السننية ،
والامتيازات المصرية ...

« ولتحققنا أن نيتها ومساعدتها فى الظاهر والباطن ليست الا
الاصلاح .. قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى

بالتحول نحو جموع العصاة ، واستعمال الوسائل القساهرة
لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤوسهم ..

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون في هذه الحالة نائبين عنا
في قطع دابر المفسدين فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ..
وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يهاملهم لقاء
حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » ؟
ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس
الامن صارخاً في وجه ممثلى بريطانيا
- اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون ..

فينهض رجل عملاق في برودوثبات وسخرية .. وأشار بيده
كالسهم ... كأنه يومىء الى تاريخ غير بعيد وقال :
- أيها السيد .. اننا لم نتطفل على بلادكم .. ولكننا
دعينا فأجبنا الدعاء ! ..

وأغلق النقراشى فمه ... ودارت برأسه الكلمات .. وصرخ
في أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شيء ، وأفاق ! ..
لو سارت الامور كما يريد عرابى وتوفيق .. أكان سيحدث
هذا الذى حدث ؟ ..

لا نظن .. ولكن الانجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا في
دخانها المتكاثف داخل بلادنا

وقد كان .. وهذا درس بليغ فلندكره حتى نعود اليه بعد حين

الانجليز وجيشنا !

قرر الانجليز أن يكون استعمارهم قفصا كبيرا يسجن
فيه طموحنا وآمالنا .. فرسموا من أول الامر سياسة اضعاف
الجيش - حتى نظل هوانا يسام - لا قوة تسيم ..

ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة

الى مصر ، محاولته النهوض بالجيش ، وارباعه الى ثمانية عشر
الفا ٠٠

ولذلك أيضا رأيناهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على
عرايى - واختصروه فى لسواء صغير جميع ضباطه من الانجليز
ومحوا العلوم الحربية والعسكرية كلها من المدرسة
الحربية التى كانت تخرج لنا الضباط ٠٠

وهم الذين تعهدوا فى معاهدة سنة ١٩٢٦ يتسليح الجيش
وقبل أن يجف مداد المعاهدة - ويتلاشى من الافق صدى طلقات
المدافع الفرحة ٠٠ وردوا لنا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيد
العصافير !٠٠

وهم الذين عثروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة
فاقترضوها ٠٠٠ ثم أبوا أن يعيدوها حتى اليوم ٠٠ وهم
الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا ٠٠ ثم امتنعوا
عن بيعنا أسلحة قبضوا فعلا أثمانها !٠٠ وهم الذين فزعتهم
محاولاتنا الاخيرة ، فجاءوا باسرائيل لتحاربنا ونحاربها ،
وفى قلب الملمحة تخلوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجاملة
لاسرائيل كما نتوهم فى سذاجة وغباء ٠٠٠ بل لغرض آخر ، هو
تعريض جيشنا لهزيمة ماحقة تذل كبرياءه ، وتزلزل ثقة الامة
فيه ، وثقته بنفسه ٠٠

ونحن على يقين ، أن تلك السرقات والآثام التى اندملت
عليها حملة فلسطين - كانت بتدبيرهم غير المباشر . واغرائهم
غير المرئى ٠٠ وتحريك مطاعم الجناة وشهواتهم دون أن يعرف
أحد حتى الجناة أنفسهم ٠٠ المحرك الاول لهذه الشهوات ٠٠ وهى
خطة هادفة ٠٠ أراد بها الانجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد
الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها ٠٠ وفى الوقت المعلوم ونحن
ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء . . .
كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : ها أنتم هؤلاء !٠٠

ان سفارة انجليزية - غير رسمية - سفارة مجهولة تعمل
في بلادنا عمل الجبارين لتصيبنا بشر ما يمزقنا . وهم في هدم
الجيش يصدرون عن سياسة تقليدية لهم أوصسهاهم بها
(غلاستون) يوم قال : حذار أن تسلموا الجيش المصرى ١٠٠

الانجليز .. ووجدتنا !

والانجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا
بقاؤهم .. ثم حملوا الألفى على الاستنجد بهم - ليكون بقاؤهم
مشروعاً من الجانبين - بجانب السلطان وجانب المماليك .
والذين فرقوا بين توفيق وعرابى ليعودوا بجيوشهم
ويحتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً مدبراً ...

هؤلاء هم الذين أغروا سعداً بعللى ، وعدليا بسعد .. وأقاموا
سياستهم على بث الحقد وتعميقه في نفوس بعض الزعماء على بعض
.. وبعض الجماعات على بعض

ليس الخلاف فى رأى هو هدف الانجليز - فالخلاف فى
الرأى لا يضر .. ولكنه الحقد والخصومة واللد ..

وسنظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ
.. وهم حين يعجزون عن النفاذ الى وحدة الأمة باحدى وسائلهم
الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكثرين

ان نبههم « دزرائلى » يناديهم من مكان غير بعيد :
« لا بأس بالغدر والكذب والوقية ، اذا كانت هي الطريق !

الانجليز .. وحررتنا !

ولقد اضطهدونا اضطهاداً موصولاً - ولا يزالون - وساموا
حرية الشعب سوء العذاب ، واضطنوا لانفسهم حثيات من
الذين تجرى في عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير
وأحاطونا بحصار قاس ظلوم - فلا نتصل الا بالدولة التي

يخافونها .. ولا نصادق الا من يصادقون. ولا نعادي الا من يعادون
حتى حرية البيع والشراء .. حررها علينا .. ولقد اشترينا
قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد - وباعوه على بعد
خطوات منا بخمسين .. في السودان !

بل حتى حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف .. سلبوها
منا .. ففي وزارة محمد محمود باشا الاخيرة - هم بالغاء البغاء
فمنعه الانجليز قائلين :

— وأين يقضى جنودنا وطرهم ؟

أى أنه لابد للدولة بعد أن استيمنت أرضها وسيادتها - أن
تقدم للغزاة نساءها بنفس السباحة التي تقدم بها غذاءها
وكساءها ! ..

وقد يتكلف الانجليز اليوم النسماع والحلم .. لاننا صامتون
.. ولكن هذه الوردية الكاذبة تنزيها عنهم المقاومة حين تكون ..
ففي ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة الا اقتترفوها قتلوا .. وصلحوا
الاذان .. وسملوا العيون .. وهتكوا الاعراض في عريضة
معدومة النظر !

وكل الذي نهائيه اليوم من قهر واختناق ، بقية من القوانين
التي وضعوها .. والتي أوحوا بها .. لتكيد حرية القول
وحرية العمل ..

ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطاني يقف وراء كل اجراء
شاذ تصادر به حريات الشعب وتسفه به رغباته .. ونحن
نتحدث عن واجبتنا ازاء هذا الاستعمار في الفصل الاخير
من زاداد هذه الحقيقة تألقا ونصوحا

٣ - البرلمان البرجوازي

ان الاستعمار البريطاني ذكى .. وهو ، وقد ورث مخلفات
سلفه البغيض - الاستعمار التركي - حاول أن يصوغ هذه

الاساليب القديمة في أخرى مستحدثة .. وأن يستكب الفساد
القديم والبغى القديم والمكر القديم في قوارير جديدة ثم يقدمها
لرعاياه شرابا سائفا ..

واذا كانت الشهوات - كما يقول آندريه موروا - في حاجة
الى أجساد تنقسمها كي تعمل .. فان الاستعمار البريطاني لم يمتنع
بتقمص الاجساد .. بل تقمص النظم والقوانين كذلك ..

فقد عاوننا على أن تكون لنا حياة نيابية ، ولكنه وقد شهد
ميلادها - بل وساهم في خلقها .. صاغها كما يريد - لا كما
تريد ضروراتنا وطموحنا ..

فالحياة النيابية الانتهازية .. والبرلمان الاقطاعي يوما ،
والبرجوازي يوما آخر ... هو الغل الثالث الذي يقيد حياتنا
ويعتاق نمونا ..

ونحن لانعنى برلمانا بعينه ، ولا هيئة نيابية بذاتها .. نحن
نعنى روح هذا النظام التي تتقاصر دون حاجات الشعب
ولا تسعفه بما يريد ..

فالاثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه
الجوع والحرمان ..

ولكى نخلص من اثبات هذه الحقيقة أولا - ونثبت أن الذين
يتحدثون من زمن بعيد باسم الفقراء - ليسوا .. بل لم يكونوا
ساعة واحدة من أعمارهم فقراء - نطالع أسماء أعضاء أول مجلس
نيابى - ثم ما تلاح من مجالس وهيئات ..

ان أول مجلس كان مجلس شورى النواب الذى تألف عام
١٨٦٦ .. وكان ندوة للطبقة البرجوازية الرفيعة فى البلاد
.. كان جميع الاعضاء من العمد .. وكان العمد يومذاك يمثلون
الصف الثانى - أما الصف الاول فالاقطاعيون الكبار .. وأما
الثالث فالشعب البائس المحروم

فمديرية الغربية نجد ممثلها في المجلس من طراز اقربى بك
أبو العز

على كامل - عمدة القصرية

الحاج شتا يوسف - عمدة أبى مندور

الحاج محمد حمودة - عمدة برما الخ . . .

ومن مديرية المنوفية نجد : -

الحاج على الجزار - عمدة شبين الكوم

محمد افندى شعير - عمدة كفر عسما

على أبو عمارة - عمدة مليج

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب - عمدة القرين

محمد افندى عفيفى - عمدة الزوامل

عبدالله عياد - عمدة كفر عياد

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالى - عمدة بنى زراح

يوسف محمد عمر - عمدة الشيخ تمي

عبدالعال موسى - عمدة دروة

وهكذا عن بقية المديريات . . . كلهم عمد وأعيان ! . . (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سنة ١٩٢٤ وكان أول

هيئة نيابية دستورية - وجدنا الباشوات والاعيان أيضا .

فاذا سرنا على الدرب ألفينا نسخا متعددة لطبعة واحدة

أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

(١) عصر اسماعيل - عبد الرحمن الرافعى بك

فتارة نلتقى مثلاً بأصحاب السعادة :

أحمد ذو الفقار باشا

أحمد زكي أبو السعود باشا

أحمد علي باشا

اسماعيل سري باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بـ :

حسين شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العباني باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدر اوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بدء الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والاعيان . فاذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة ..

واسمى الآن أسماء خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ لهيئة

قبراطا فدان

برلمانية حديثة - خمسة فقط - يكون - ١٧ ٦٥٠٠٠

ونحن طبعا ، لا نفكر حين نعرض هذه الظاهرة في التثديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وانما نتساءل في ضوء هذا الواقع هل يمكن لهذه المنظمات النيابية أن تمثل شعبا تسعة أعشاره من الحفاة المرأة ؟

هل يمكن أن يوافقها الاحساس الصادق بالام الجماهير الكادحة ؟

هل يمكن أن تسمى لحسرية الشعب وحقوقه كاملة .. وهي تعلم ان كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الأعلين ، وكل حظ يأخذه ، يصيب ثراءهم العريض بالنحول ؟ ..

ان البرلمان البرجوازي ليس أكثر من تضامن الأعضاء مع الحزب الحاكم لتبادل المنافع والمآرب ..

والحياة النيابية لا تكون حياة .. قوية نابضة ، الا اذا كانت معبرة عن جميع خصائص الشعب .

وانا لنجد من الوقائع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بأن هذا التخطئ الذي أصبنا به في الحقبة الأخيرة من حياتنا إنما سببه الأكيد سوء تمثيل الحياة النيابية للشعب .

وحسبنا ان نسأل : -

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر في عهد اسماعيل برلمان قوي يمثل الشعب ، لا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والاطيان ؟

وخير جواب على هذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوي المصالح والاطيان ؟ ..

حدث ان اقترض اسماعيل :

١ - عام ١٨٦٤ - ٢٠٠ ر ٧٠٤ ر ٥ من الجنيهات بحجة مقاومة الطاعون البقري - ثم ترك الطاعون يهيم في البلاد والعباد ..

٢ - واقترض عام ١٨٦٥ - ٣٠٠ ر ٣٨٧ ر ٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر «ميركون» على ضفاف البسفور .

واقترض عام ١٨٦٦ - ٣٠٠ ر ٣ ليشترى بها أملاك الاميرين مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كي يتخلص من منافستهما له

واقترض عام ١٨٧٠ - ٣٠٠ ر ٣ دفعها رشوة

للاستانة كي يظفر بقلب «خديو» وسافر ببقيتها الى باريس .
واقترض عام ١٧٧٠ - ١٧٨٦ ر ١٤٢٠ ر ٧ لينشىء بها مصانع
السكر الخاصة به ، وبمد سكة حديد زراعية تربط اطيانه
الترامية بعضها ببعض .

واقترض عام ١٨٧٣ - ٣٢ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ رهن قبلها بعض
مصالح الحكومة

وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ١٢٦ ر ٣٥٤ ر ٣٦٠ من
الجنهات - (١)

حدثت هذه القروض المفجعة التى أروى بها اسماعيل هواه .
وملأ الارض قصورا - فشييد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ،
وقصر القبة ، وقصر حاوان ، وسراى الروضة ، وسراى
الاسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس
التين . وعشرات أخرى سواها

وحدث ان جاع الشعب . . اتشبع حفنة رديئة تعد على
أصابع القدمين من بطانة اسماعيل وحاشيته التى يحدثناعبدالرحمن
بك الرافعى فى كتابه - عصر اسماعيل - أنها كانت من
الفرنسيين والايطاليين والانجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا فى
بلاط الخديو مرتعا وملاذا . .

وحدث أن أرهق الشعب بالضرائب ارهاقا منقطع النظر ،
حتى جعل على الاغنام ضريبة ، وعلى الحمير ضريبة . . !
والآن : نعود ، فنسأل - ماذا كانت هيئاتنا النيابية
ستصنع ، لو أنها تمثل جميع الشعب . . وآلام الشعب . . ؟
كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليم جيشنا
على أن تتجه فورا الى دول أخرى نوع تلك الدول التى اجأت اليها
انجلترا وامريكا يوما ما .

كان سيحدث عند منازل «شاهنشاه ايران» عن جميع
اطبائه للشعب أن تسبق الحوادث التي تسبب تستجيش أحقاد
الشعب ، فتطالب الى آلهة الاقطاع في مصر أن يتشبهوا بالرجال ..
ويردوا الأمة أرضها .

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه
» ان مكاسب كازينو ايفيان القمار قد زادت عام ١٩٥٠ ٧٠٪ عن
الاعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الاغنياء الذين يذهبون
الى بحيرة ايفيان باحثين عن الاشياء المشيرة » .
. أن يصرخ البرلمان في وجه الحكومة ..

من هؤلاء الباشوات .. ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم
ليشتروا بها اهوا عابثا .. ؟

أفنعجز هنا عن ان نحاسب (باشوات) .. وهناك في بريطانيا
يقف بعض أعضاء مجالس العموم يحذرون الحكومة من أن تتحمل
نفقات رحلة ملكي انجلترا الى جنوب افريقيا .. ولم يسكتوا
حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه
الخاص .. ؟!

نعم - ماذا كان يحدث أيضا أن برلمانات الشعب هي
الشعب .. ؟

كان سيحدث ، عندما تقدمت الحكومة طالبة اقرار مشروع
قانون يفصل بين الشعب والقصر ..

قانون يجعل القصر الملكي «منطقة حرام» ويحرم على الأمة
أن تتحدث عن ملكها بغير تصريح من وزير - أن ينتفض ويقول :
كيف يتحكم الوزير وهو موظف .. في شئون القصر وأخباره
فيجعل بعضها حلالا - وبعضها الآخر حراما .. ؟ كان سيحدث
أن يصرخ برلمان الشعب ..

نحن مصر . . ومصر ترفض أن تنهض أخبار مليكها ، مصر
ترفض أي سرور يقام بينها وبين عرشها . . مصر ترفض أن
تلتقط أخبار الملك من أفواه الأذاعات الأجنبية المفروضة ،
والصحف المخرفة . .

إن الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما . . وإن أخبار الملك
وتصرفاته السامية ليس فيهما ما يخجل أو يريب . . حتى
نظمها تحت رقابة وزير . . ! وعندئذ كان هذا القانون سيلقى
نفس المصير الذي لقيه قانون الاشتباه . .

وكان سيحدث أن يطلب إلى الحكومة الوقوف، العاسم الصارم
في وجه المهربين الذين سربوا أموال الأمة إلى سويسرا حتى
انخفض سعر الجنيه المصري بالسوق الحرة بنسبة ٢٥٪ في
الصيف الماضي . .

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء
مسلحا، وزجوا بالكثير من ابنائها في المعتقلات أن يقوم البرلمان
نفسه بالثورة ، ويكره الحكومة عليها ولكن أنى يكون ذلك ووراء
كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود
عنها ، وتعمل من أجل بقائها وانماؤها ؟

كان سيحدث طوال هذه الأعوام التي قضيناها في مفاوضات
عابثة ، والتي وعدنا الاستعمار البريطاني خلالها بالجلء مائة
مرة . . ثم كذب علينا مائة مرة أن يجتمع أعضاء « البرلمان »
ـ أي برلمان ـ ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا أن جيوش
بريطانيا الرابضة في القنال ـ جيوش معتدية يجب طردها ـ
ويقرروا أيضا أنه لا قيمة للحياة النيابية تحت خفق الاعلام
البريطانية . . واذن فيغلق البرلمان ، ويخرج أعضاؤه إلى
الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله إلى معركة الحرية والاستقلال

٤ - الفرائز الناقمة

والآن - الى القيد الرابع - وهو الفرائز الحاكمة المترتبة -
والحقيقة أن غرائزنا مجنى عليها .. وجانية ..

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد .. فانقلبنا
الى قوات شريرة شرسة حين تفزع .. والى مخدر مشيط
منيم حين تهجع !

وقبل الاستطراد في الحديث عنها نسأل : ما الغريزة ؟
يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطري خاص ، يقوم به صاحبه
في ظروف خاصة ..

أوهى .. ميل فطري يحمل صاحبه على عمل أو أعمال خاصة
عند ظهور مؤثر خاص ..

ويضربون لنا مثلا - الغضب - انه استعداد جسمي عقلي
موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتحوش به عدو
معتد ، أو طاغية أئيم ..

ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الإرادة الكامنة وراء كل
عمل يأتيه الفرد أو الجماعة ..

نعم - الفرائز إرادة ، وبقدر ما تكبت غرائز شعب تكبت إرادته ،
وتطمح حياته ..

ودراسة التاريخ الانساني تركى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة
قاهرة .. بالغة أمرها .. لاتنال منها الهزيمة منالا ، وهى حين
يختفى نشاطها فى سورة كبت أو ضغط .. فليس هذا دليل
انصرامها .. بل تكون آنث فى دور تهيؤ للانتفاض والانتقام

انها راسخة رسوخ النوع الانساني ..

وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ..

ومريدة لا راد لمشيئتها ..

و ضرورية لبقاء الفرد والشوع معا

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعاليتها ، وتقويمها
انها قوى الالهام والابداع ، ولسنا في مصر والشرق نسيء
بها الظنون - شأننا دائما مع كل شيء نجهله أو نتهيبه ..
ونمضي نظاردها ونخنفها - دون ما ندرى اننا نظاردها الحياة
ونخفق فينا ارادة الحياة !..

وقدي حسبنا القارىء مسرفين حين نقول : ان تحرير أنفسنا ،
وتحرير أوطاننا ، وتحرير عقولنا - كل هذا منوط بادیء الامر
بتحرير غرائزنا . بيد انه لن يلبث خلال مراملتة هذا السطور
ان يفتى الى هذا الرأى ، ويسرف مع المسرفين !..

والآن .. لكى نستبين قيمة الغريزة ، وأثرها في الحضارة
الانسانية نضرب مثلا غريزة الخوف ..

فلقد أنشأنا المدارس - خوفا من الجهل ..

ووضعنا الدساتير - خوفا من الاستبداد ..

وأقمنا الحكومات - خوفا من الفوضى ..

وانشأنا المستشفيات ، ونبغنا في علوم الطب - خوفا من المرض

وأقمنا المصانع والمخترعات - خوفا من العوز ..

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل - خوفا من الله ..

وخطونا نحو الاشتراكية - خوفا من الشيوعية ؟!

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة - هى غريزة الخوف الى هرم

بازخ من الشروة المادية والادبية - ولكن شعبنا المعانى ، تعاني غرائزه
محنة لا تطاق - هى نفس المحنة التى يعانىها الشعب من كبت
وحرمان - وكثيرا ما يتبادر الى بعض الاذهان أن اطلاق
الغرائز معناه العريضة والفجور .

وهذا أثر وهم موروث .. وجهالة مزمنة ، فاطلاق الغرائز

يعنى اطلاق القوى الهائلة التى أودعت فينا لتعمل وتشمر ..
وهذا الكتاب يضيق حجمه، وتضيق أغراضه عن حديث
مسيب مستفيض فى الغرائز .. وهو يحصر حديثه عنها فى بعضها
الذى تشمل فى كتبه مشكلة بلادنا

ونعنى بهذا البعض :

غريزة الغضب ..

غريزة النفور ..

غريزة الاقتناء ..

غريزة ((الظلم)) .. وتشمل حب التناء وحب الظهور

نوعية ((الشاركة الوجدانية))

فهذه الغرائز، وأخواتها عامل أساسى فى طبيعتنا ، وهى تسموه
أو تنحط تبعاً للغاية التى تجند لها، والوجه الذى تستخدم فيه
ولكن انحطاطها يكون مؤثداً ومضموناً إذا وكل إلى القهراًمر
تهذيبها ..

فاذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه أن ينفر
مما يكره ، وحرم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه
أن يمتاك ويقتنى .. فلمأذا يعيش .. ؟ ولنبدأ بـ :

أ - غريزة الغضب :

ان وظيفتها المحافظة على النفس

ومثيرها - وجود العدو ..

والعدو المثير لها فى الجماعات هو - الاستعمار، والاستبداد ،
والقوانين المعسفة، والاستعباد الاقتصادى .. إذا وجد شيء
من هذه ، أوجمىعها فى شعب فلزود يغضب .. ان غضبه
هذا صمام الأمان - ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة

إطفاء النار بقاذفات اللهب ..! ولسنا بذلك ندعو الى شغب أو فتنة - بل الى سكينه وسلام .. وانما دعاة الفتنة والثورة يعشق هم أولئك الذين يتحدون طبائع الاشياء ، ويحاربونها بقنان ..! وما أحوج هؤلاء الغلاظ الى درس فى التاريخ ، ليعلموا انه كان وراء كل ثورة كاسحة ، وانقلاب مدمر ، وأعصار وبيل - ركاب هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فاذا هى وقود الثورة وخشب الانقلاب ..! لقد ساهمت احزابنا جميعها ، وحكوماتنا جميعا فى قمع هذه الفريزة لدى الشعب فماذا حدث ؟

حدث ان ترنحت بادىء الامر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم ، فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل .. ثم استيقظت - فاذا طاقتها جميعها قد استحالت الى حقد اسود على الدين اضطهدوها .. وهم للأسف مواطنون من سياسة وحكام ..!

ولوتواصت حكوماتنا بفريزة الغضب خيرا لحدث النقيض .. كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة الى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا - ثم اذا لم تجد منارها ولا اعناتا تتسرب فى مجال نافع ، وتعبر عن نفسها بمقاتلة العجز ، ومباراة الطبيعة لاستثمار أرضنا وسماننا وهوائنا ..

وانه لمن دواعى الاسف والفجعة - ان يقدر الانجليز هذه الفريزة قدرها ، ويتوسلوا بحسن التفاعل معها الى بقاء استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه

فحين استجاش حفاظنا حادث دنشواى تركونا نفلى كفلى الحميم - حتى اذا أو شسك البخار الحبيس على التفجير والانقذاف - رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء

وكان ذلك الغطاء - كرومر .. فنقلوه من مصر !

ولما وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم

من حادث - { فبراير - يتراكم ويتجمع ويتحفر ، وارتجج الاناء
بالبحار المحتاج - خطوا نحوه خطوة .. ورفعوا الغطاء
وكان هذه المرة .. كليرن .

ولكن حكمانا - كبارا وصغارا - لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا
يريدون أن يعرفوا اللحظة التي يجب أن يرفع فيها الغطاء .
لقد كبت هذه الفريزة وكبلنا معها - بمجموعة من القوانين ،
وبالارهاب الموصول - فما المخرج من هذه القيود ؟

عندما نتحدث في الفصل القادم عن الحرية سننشط
الطريق لتحرير هذه الفرائز العاملة المنشئة - أما هنا فنحن
فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر
وآثار ..

ان حكوماتنا من طراز عجيب
فهى تبطش بنا مع الباطشين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..
وهى تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول : حذار أن
تغضبوا ..
وهى تسلبنا حرياتنا وتقول : ويل لكم ان تغضبوا !..

هى تسلبنا العلم .. وتحرم علينا الغضب ..! حتى أصبحنا
تصنف بنا الحوادث ، وتذروننا ريع العذاب ، وتصفنا قوى
الشر بأيديها ، وتركلنا بأقدامها .. فنرفع أبصارنا الخاشعة
الدليلة تجاه السماء .. فتبصق السماء عليها .. ثم تردها الى
الأرض دامعة خجلى ..

أو لا يذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا
قارعة .. فيستصرخوا بالشعب .. ويخرجوا له كل يوم نداء
وبيانا ، فلا ينظر ، ولا يسمع ، ولا يجيب ، ولا يفنى عنهم شيئا .!

انهم المومنون .. فهم الذين أخرجوا فيه صيحة الفريزة

يقوانين القهر التي ساهموا جميعاً في خلقها .. واحالوا طاقتها الى
حقده عليهم ، وعلى كل المعاني التي يمثلونها ، والقوى التي
يساندونها ..

لقد نصبت حكومة عراقية مشائق الاعداء لشباب باسل
حر غضب من اجل بلاده على الانجليز المستعمرين - والانجليز
المستعربين ! .. ودقت حكومة اليمن اعناق مواطنين غضبوا من
ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير ..
واقامت حكومة لبنانية من نفسها خصماً وحكماً .. واهدرت
حيوات شباب غضب من الرجعية السياسية التي تريد ان تلف
الشعوب في مثل الضباب .. !

ومثل ذلك في سوريا .. وأمثال ذلك في الحجاز .. ثم
يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت
ساداتها ، ورهبوت قادتها ان تفاضب المستعمر وتجالده .. !
ان كل سياسي يكبل غريزة الغضب في أمته بالارهاب والقوانين
لخائن أعظم ، وافاك أثيم ..

والحديث عن الغضب كفرية واجبة الاحترام والرعاية ، حديث
يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئام من الناس .. وقد يبارك
هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته .. وقد يفضلون فينعتوننا
بالاحاد لاننا ندفع عن الغضب كفرية .. بينما الدين يستهجنه
كأثم وجريمة ..

وعفا الله عنهم - سلفاء وانهم لخطئون !!

فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك .. بمعنى ان
الاسراف في كليهما خطأ وفراغ .. ثم هو ينهى عن الغضب الفردي
الذي يثيره التحرش بحق شخصي تمكن حمايته بالتودد والرفق ..
ثم هو ايضا يعنى باستهجان الغضب - التماذي والتطرف ،
وازجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان ..

ولكنه لا ينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة

لصيانة حرمات الشعب وحقوق الجماعات

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط .. فاذا انتهكت لله حرمة ،
فلا اجد اشده منه غضبا ! .. »

ان حرمات الشعب كحرمات الله - فحين تنتهك ، وتتسورها
الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجبا ..
ولقد غضب الله ذاته في موقف مشابه ..

فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك .. الهذا
جمعتنا .. ؟ تقاذف الوحي في سرعة البرق ، ورجم الصواعق .
« تبت يدا أبي لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله وما كسبه ..
سيصلى نارا ذات لهب .. »

فاذا قام في الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ،
ويعنته كان جزاؤه تثبيتا واعناتا
غريزة النفور .. ؟

ومن الغرائز التي حرم الشعب من نشاطها المنشيء ، وانكفات من
طول اضطهادها تعمل ضده ، لا معه - غريزة النفور ..
وانا لنسأل :

هل يمكن ان يساق الانسان الى طعام كريبه . ؟
هل يمكن ان يقبل مختارا على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه . ؟
اننا ندعو الطاكمين ان يجربوا ذلك ، ولو مرة ..
خذوا لقمة عفنة .. او حشرة دسمة .. وضعوها في أفواهكم
وامضغفوها ، وتلغظوا بهن ، واستحلبوهن .. ثم انظروا
ما سيحدث ..

سيحدث طبعها تقزز ونفور وغشيان ..

واذا دلف اللعاب الى الجوف بشيء من هذه الطعمة الكريهة
فسترفضها الامعاء في عنف فيحدث تَجشُّؤٌ وقىءٌ
ان هذا الطعام المقلدوف -يصور لنا قوة الغريزة بوجهه
عام - وغريزة النفور بوجهه خاص . .

ويدل في معناه العميق - على ان النفس البشرية ترفض بمثل
الطريقة التي ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل
ارادة تكبل حريتها، وكل مستوى معيشى يزرى بآدميتها . .
وان ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغشدر ، ونهب ،
وتفاهة . .

ولكن شعبنا الاسيف محرم عليه ان ينفر ، ومحرم على غريزة
النفور ان تؤدى وظيفتها

مطلوب من الجماهير ان تبسط يدها الى اللقمة العفنة ، او
الحشرة الدسمة . . ثم تدسها في فمها ، وتستحلبها كما تفعل بأى
شيء حلوا لذيد . . !

اى فارق بين هذا ، وبين اكرامها على الاقبال على نظم
لا تريدها ، واوضاع لا ترضاهها، واشباح غريبة لا تعرفها ولا
تألفها . . ؟

اى فارق بينه ، وبين تجريعها المظالم المريرة المتمثلة في حكم
الفرد ، والاقطاع الفاحش ، والرجمية الراكضة . .
والام نعزو هذا التعفن والبلى والجمود في حياتنا السياسية ،
والاجتماعية ، والاقتصادية . . ؟

ولكن قبل ذلك . . هل في حيواتنا هذه تعفن ، وبلى ،
وجمود . . ؟

نعم . . واكثر من نعم . . !

نعم . . رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنائات السامقة ،

ونعم تلك الحريات الفاسخة ، والحفلات الساهرة . . فما هذه
وحدوها مظاهر البعث والتجديد !

ان بعث الامة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء في تجديد حياتها
السياسية ، ونظمها الاقتصادية ، ومساريرتها ركب الحضارة
وموكب الايام . .

واقعد راينا في بداءة هذا الفصل كيف كانت سياستنا ،
واقصادياتنا ومجتمعنا . . وهى صورة حياننا المائلة ، مخلوطة
ببعض الالوان الزاهية الملتمة . .

ما ذا طرأ علينا من تغيير وتطوير . . ؟

كنا بالامس « عبيد الباب العالي » . .

ونحن اليوم — عبيد الحزب الحاكم . . ! أى حزب . .

كنا بالامس نعيش فى بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو
« المالك الحر لجميع ارض مصر » .

ونحن اليوم نعيش ايضا « ملتزمين » وعشرات الاسر
والبيوتات هى « المالك الحر لجمع ارض مصر » . . !

كنا بالامس لا نملك نقد الوالى ولا معارضته ولا تقويمه . .

ونحن اليوم لانملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالامس ضحايا النهب ، والرشوة ، والاستغلال . .

ونحن اليوم كذلك ايضا

كنا بالامس نجلد بالسياط ، وليس فينا برلمان . .

ونحن اليوم نجلد بالسياط ، وفينا برلمان . . !

كنا بالامس مسئولو الحرية ، والارادة . . وليس لنا دستور ،

ونحن اليوم مسئولو الحرية ، والارادة ، والكرامة . . ومعنا

دستور . . !

كنا بالامس أمة مستعمرة باكراه . .
ونحن اليوم امة مستعمرة بمعاهدة . . !
كنا بالامس أمة تتربص بأعدائها
ونحن اليوم أمة تتربص بنفسها . . !
كنا بالامس شعبا تلهيه الشياطين فيتقاذف الى امام . .
ونحن اليوم شعب تلهيه الشياطين ، فيتراكض الى وراء . !
كنا بالامس نقبل اقدام ساداتنا ونعتذر لانفسنا . بأنهم وضعوا
فيها قلوبهم . .
ونحن اليوم نقبل اقدامهم . . ونعتذر بأنهم وضعوا فيها قلوبنا !
كنا بالامس امة معزولة عن العالم . لا تعتمد الا على نفسها .
ونحن اليوم امة في « هيئة الامم » تعتمد على غيرها . . بل
على اعدائها . . !
هذه حقائق امرنا . . في امسنا و يومنا . . اما ما وراء ذلك من
زينة وزخرف . فليس اكثر من طلاء اردناه ليستمر مقابح الماضي
الذي نعيش اليوم فيه ، فازدادنصاعة وبيانا . . !
ونعود نسأل :
الى اى شيء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود . . ؟!
انه في نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور في المجتمع ، وتحويل
طاقتها الهدامة الى نكوص واضطراب . .
فدور هذه الغريزة في التطور الانساني من اهم الادوار وخطرها
. . وبها يتأتى التجديد المستمر . . والانشاء والابداع . .
فنفور الانسانية من الدابة . حفزها الى اختراع العربة ،
فالقطار ، فالطائرة . .

ونفورها من حياة البادية والكوخ .. دفعها الى انشاء
المدينة وتشيد القصور ..

ونفورها من الظلم افضى بها الى العدل ..

ونفورها من الاتوقراطية .. دفعها الى الديموقراطية ..

ونفورها من الاستعمار .. قذفها نحو الحرية ..

ونفورها من الاستغلال .. ادى الى الاشتراكية ..

ونفورها من الانقراض .. حتم عليها المسيرة ..

ونفورها من الحرب .. دفعها لشيدان السلام ..

فاننا اطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدى الدور
الذى وجدت لادائه ، وعاونها في نضالها . لكننا اليوم امة اخرى .

ان الحكم المطلق يمتد في عمله لبقائه على اضعاف هذه الغريزة
ليموت في الشعب كل احساس بالمساويء وتتبدد كل محاولة
للفور او التغيير

فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها -
يصير مأساة مفردة ، وكارثة متفوقة ..

لانه يقع به الظلم .. فلا يفر منه الى العدل .. !

وتعضه الفاقة .. فلا يفر منها الى الرغد .. !

وتهوى على ظهره السياط .. فيزداد انحناء لتلقيها ..

وتساقب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه .. فلا يقلب كفيه على
ما انفق فيها ..

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين .. انهم لا يريدون
شيئا آخر سواه ..

فاذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجددنا وانبعثنا .. فلنفض عن
غريزة النفور وعن اخواتها - قيودها الظالمة ، واغلالها الآثمة .

ج - غريزة أنا ..

منذ ثلاث عشرة سنة تقريبا ، كنت استمع مع جمع غفير ، الى محاضرة متوهجة ، كان يلقيها الاستاذ محمد توفيق دياب .. وكان من عباراتها .. كلمات لا تنسى ..

« .. انظروا فيما حولكم من الأمم ، ثروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول : انا انجلترا .. والفرنسى يقول : انا فرنسا ، والامانى يقول : انا المانيا .. فمتى نستمع المصرى يقول : انا مصر .. ؟ »

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحداثة السن .. وظل العقل الباطن امينا عليها حفيظا لها .. حتى وجدتتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد او انتظار ..

ونحيت الورق جانبا ، وشرعت اتصور مرة اخرى ذلك المشهد فى قاعة « اللىسسيه فرانسيه » ، وعلى مسرح القاعة ، وقف الرجل كأنه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال .. والى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسسه الكلمات من الكهرباء فيجلجل ويصيح .. !

ثم عدت الى الساعة التى انا فيها .. وساءلت نفسى : ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الاعوام ان يقول : انا مصر ؟ أم هى لاتزال امنية من الامانى والاحلام .. ؟
ان غريزة حب الذات وتوكيدها لدى الفرائز التى وقعت فى اسر الظلمات - وحيل بين الشعب وبينها .. كما حيل بينها ، وبين طاقتها ووجهتها ..

انها سليقة من انبل وانفع سلائق الانسانية .. والذين قامروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد .. بل ومعهما - او ربما قبلهما رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ..

ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية . .

فقد مضى هؤلاء وأولئك يلقنون الناس أن احتقار النفس وبغضها ونسيانها . . هو الهدى والفلاح !

وقالوا لهم ، فيما قالوه ، إن الله لم يطرد إبليس من الجنة إلا من أجل كلمة واحدة قالها هي : أنا . . !

وهناك اثنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الأفكار الرديئة المدبرة . . وينسى أولئك المربون والعلمون أن الرسول قال : أنا . . أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، قاله أدون أن تنقص من تواضعه شيئاً أنا شعب مستضعف . . لأن فيه ضعفا . .

ومستعبد . . لأنه يحسن العبودية ويركن إليها . . !

وسر ذلك أطفاء احساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع « غريزة » الانانية المستنيرة الرشيدة فيه . .

وهذا الموظف البسيط الذي يرتجف أمام رئيسه . . يمثله في نطاق أوسع . . الأمة كلها عندما ترتجف أمام مذلها ومستعمرها ! وتمثله أيضاً عندما تنهوى تحت مسود القوانين الزاجرة الرابعة دون أن تملك إزاءها حولا

وتمثله حين تنماع شخصيتها وتتلشى في كل فكرة تطرق بابها . . وكل دعوة تستثير حماسها . . وكل استثمار يزور ديارها دون أن يكون لها عاصم من ريث وإناة . . وتمثله كذلك حين تنهافت على أرضاء حاكميها ، وتهتف بحياة قاتليها . . !

لقد كان أعجب ما صادفني وأنا أقرأ تاريخ امتي أن سلطانها -الحاكم بأمر الله- ادعى الألوهية أيام أصابه مس الغرور والجنون وأمر بأعداد « سجل تشريفات » ليستقبل أسماء المهنيين للحاكم ، والمؤمنين بألوهته البلهاء . .

ولم تغرب شمس اليوم الأول حتى كان دفتر التشريفات قد

غصن ، وازدحمت صفحاته بتوقيعات وبعثات سبعة وعشرين
ألفا من الشعب المبرور . . !

ثم رجعت البصر الى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت
نفس الشهيد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم . . بل وجدت
مائة ألف او يزيدون - ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف
يمستقبلون « كليرن » بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل
عليهم من شرفة مجلس وزرائنا . . كأنه القمر ليلة البدر . . !
ثم وجسدتهم يحملونه على الرؤوس والاعناق . . كل ذلك
صبغة الاممية الظلماء التى اقترفت فيها - ببسالة نادرة -
جريمته وحصاره . .

لو كان هذا الشعب تعلم من زمان . ان يقول : انا . . وجرت
من روحه وعصبه وكيانه معجى الدم . . لنهض فى اهابه كائن من
الحرية والكرامة والكبرياء يشرق عن كل حسار . . ويستعصى على
كل اغراء واذلال . .

غريزة الاقتناء . .

عند ما كان الاتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد
ولايتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة ، وسأله :
- لماذا لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه . . لقد دفعت كثيرا يا سيدى حتى لم يسبق لى ما
أدفعه . . وان أرضى لم تغل هذا العام شيئا . . !

وغص الباشا التركى ببساء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض
من مقعده ، ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

. . وأيضا تقول أرضى . . انها أرض السلطان ، وأنتم عبيده
ومواليه . .

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها ، وحل بديلها ، غريزة
الحرمان . . أو تقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

ان هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركي الذي قبضنا في ظلماته ثلاثمائة عام .. ثم لانزال تجوع ، وترغم . فاذا كان الساطان التركي الذي يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت ... فقد حل مكانه عصااية من الاقطاعيين تملك البلاد وانعباد .

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها ، وثمار كـدها وكـدها .. أو أن تمتلكها الدولة لحسابها . يكون ذلك وأداوقـتلا لغريزة من أهم الفرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامها ..

ان في الفرد غريزة تسمى « غريزة الاقتناء والتملك » تظهر في دور الطفولة - فترانا نجمع اللعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا في أطوار حياتنا جميعا - وتختلف حالها الوجدانية لدى الناس ، فاذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد التي تتيح لصاحبها حياة رغبة تقوم على التكافؤ لا على الانانية والشره والعدوان .. واذا كانت جشعة مفترسة تمظهرت في اقتطاع الارض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والاموال ..

وفي بلادنا هذه - يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضد الطبائع الانسانية ، لانها تحرم الامتلاك وتهـدم بذلك غريزة انسانية عاملة .. يقولون هـذا ثم يتحدون هـذه الغريزة ويضطهدونها ، ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك .. ؟ !

أتراهم اذن شيوعيين ؟ !

قد يعارضوننا متسائلين :

ألسنا نتيح للناس أن يفتنوا ثيابا ، ويمتلكوا بيوتاً ، وحيوانات .. ؟

ونجيبهم . نعم ، والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك .. !

ولكننا نريد حقنا في هـذه الارض التي سقتنا وسـوتها

سواعد آباء لنسبنا كابدوا فيها الهول والشمسقاء ، وكان كل عزائهم أنها ستصير لاحفادهم مثابة ورزقا . .

لقد سقنا في كتابنا -الاول- الاحصاء الرسمي الناطق بأن أكثر من ستة عشر مليوناً في هذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم . . !

ولقد كانت خطورة المسألة تتبدى هناك في المضاطر التي يفضي اليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملك كل شيء . . ومن يفقدون كل شيء . . !

بيد أنها هنا تتبدى أمام بصائرنا أشد تعجها وعبروسا وفضاعة . .

فهى كما نرى الآن تتصل بفرائزنا التي أقامها الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا . . .

انها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام . . وكغريزة الجنس ليس لها علاج سوى اللقاء . . انها كذلك . . ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقى قبل الدولة التي سمحت لى بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى فى العمل من أجلها . . فاذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها - فانها كأي غريزة أخرى - لن تموت ولن تفنى . بل ستتغير اتجاهها ، وتنتقم لنفسها ، فبدلاً من أن يتسرب نشاطها فى الإيحاء والتعمير . . يتفجر فى التقويض والتدمير . . . !

هـ - المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل فى الأمم والجماعات . . واذا ادركنا أبصارنا فى شعبنا فوجدناه مزقاً وأشتاتاً . . والقيناء تخابى الشعور خافت الصيحة ، فلأن حكوماتنا المتعاقبة ، والاستعمار المجهز من ورائها - قد أفسدوا عليه اسمى نزعاته وأنفعها ، تلك هى « المشاركة الوجدانية »

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من أجل تماطف الشعب وتضامنه ببعضه مع بعض .. بل قبل ذلك من أجل تضامنه مع الحكومة وتضامن حكومته معه في الالتزامات .. انها حين تستقيم تفسير صمام الامان الذي يجنب المجتمع عدوان الدولة ، ويجنب الدولة انتفاض المجتمع .. ويؤلف بينهما ، ويؤاخي بين ما لكل منها من مشاعر وخطط وأهداف .. ليتحركا معا صفا واحدا نحو الفايات التي اختارها وآثرا العمل لها ..

ولا يمكن قط أن نقول أمة : اننى بدأت المسير الى المجد .. قبل أن يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضام والترابط والمشاركة ولأن الاستثمار لا يريد لنا أن نسير : فقد استغل هذه النزعة وتوسل باضعافها وارهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلائنا من ذلة وانكسار وفرقة

لظالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لانهاضها ورعرعتها حين كان يدعو الى التجمع ، ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول ..

« انما يأكل الذئب من الغنم القاصية .. »

وحين جهل مثل الجماعة المتكاثفة كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسيهر .. وحين أخبر أن أبعد الناس من قلبه ، وأبغضهم اليه هم المفرقون بين الاحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين ألزم نفسه يوم كان المسئول عن أمته وجماعته أن يكون أول جائع اذا جاع الناس .. وآخر من يأكل .. اذا وجد الناس ! ..

وحين رفض ايمان كل رجل بيت شعبان ، وجاره بجواره طار بطنه على جوع ..

ان المشاركة الوجدانية في الأمة هي عصبها ، وغددها ،
وسبب النماء والقوة فيها ..

يقول ماكدوجل :

« .. انها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التي تحدث عند
الانسان عندما يجد انسانا آخر متأثرا ، فتجعله يشعر بنفس
شعوره .. كما لو كان قد انتقل هذا الشعور اليه بطريق العدوى . »
ومعنى هذه العبارة في دلالتها الواسعة .. انها التيار الذي
ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها في خط طول واحد الى حيث
يؤدي غرضه على اكمل صورة وأتمها .. واذا عجزنا عن
الاستنجاد بما في انسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان ..
انه قادر على أن يهدينا سواء السبيل !..

يقول العالم الالماني كهلز: (١)

« .. ان قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو أى شئ مباهى
صغير وتعانقه الواحد، تلو الآخر، بمجرد سماع صرخة واحدة
تند عنه .. »

ويقول العالم الأمريكى هولمز:

« .. ان جماعة النمل والنحل، وكثيرا من الحشرات يظهر عليها
الغضب ، حين يفضب واحد منها لسبب ما .. فتأخذ في
التجمع من غير أن تدرك له سببا .. »

ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول: انه استثار
مرة قردا فصرخ، فاذا جماعة القروود تخف اليه وتتجه نحو
«هولمز» لتثار وتنتقم ..

يقول هولمز : « .. حتى ان القردة الوديعة «ديانا» هجمت

(١) كتاب علم النفس - ج ١ - للاستاذ الابراشى وزميله

علي بنوحش ، معانى كنت قبل ذلك بفترة قصيرة الابعها، واقدم
لها الهدايا .. » !!

اى كارثة ماحقة اصابنا امتنا فلم تعد تجد من الأباء والوطنية
والمشاركة مثل ما عند القردة الصغيرة ديانا .. ؟!

لقد استجابت «ديانا» لواجبها نحو جماعتها فذهبت تعض
اليدين التي كانت تطعمها وتناغيها .. لانها اعتدت على زميلة لها
أو زميل ..

وفي بلادنا قوم لا يطعمهم الاستعمار .. بل يستذلهم
ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفون مع الجماعة ضده .. بل العكس،
ويتركون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليا ، وجلائل
الأعمال .. !

ان الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التي تمتص من هذه
الزعة النبيلة طاقتها ..

أفلا ترون ؟!

هذا الاستعمار الذى يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا .. ويلطمنا
كل يوم لطمة عاتية ..

والذى يتصرف فى بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا ..
فيستفك مع امريكا على القواعد الحربية فى بلادنا .. !

والذى يجثم على كاهلنا ، ويشير الفتن بيننا لتظل له ..
الكبرياء والنفوذ فى الارض ..

والا ترون ؟!

هذا الفساد السياسى الذى جعل مصر أشبه ماتكون بصحيفة
تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية .. ثم تملأ صفحاتها
بحروف تركية ..

أعني أن سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصرى .. وليس
سلوكها كله ، وأنظمتها كلها ، وتقاليدها جميعها لا تزال بقية
مما ترك الأتراك المستعمرون .. هذا الاستثمار ، وهذا الفساد .
أين الشعب منهما .. ؟ أنه يهمهم ، ويغفم ثم لا يزيد ..
بل حتى هممته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشارك
انسجام .. !

لماذا .. ؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لا تؤدي وظيفتها
ولا تستثمر طاقتها طبقا لخطة موضوعة تواسى بها الاستثمار
والاستبداد .. فصار عاجزا عن أن يصنع صنيع الشعبان
حين يضام منها قرد صغير .. !

هذه هي المطارق التي تنهوى فوق محاولتنا ، وتنهال على
إمكانياتنا :

أ - الاستثمار التركى الذى ذهب حكمه ، وبقيت أحكامه
ب - الاستثمار الانجليزى بنفوذه السياسى ، واحتلاله
العسكرى ..

ج - البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته لاوعيه
ومشيئته ..

د - الفرائز الناقصة التى أضناها طول الاضطهاد ، فمضت
تعمل ضد المجتمع لا معه ..

والخلاص من هذه الاوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون
.. بل الطريق اليه سوية ممهدة .. تعتمد على النظام والحب
والمثابرة .. وكلها خليفة من الحكومة والشعب بالتقدير
والاحترام .

وسنبدع الآن الاستثمار البريطانى حتى نلتقى به فى
الفصل الاخير من الكتاب ..

وسنشهد في فصل جديد هو الفصل القسام .. أسباب
النجاح من الماضي الذي يطاردنا ومن البرجوازية النيابية المستغلة
التي تهتق نمونا، ومن الحصار المضروب حول غرائزنا وقوى
الحياة فينا

فالى هناك ..